

التوبة النصوح

أبو مريم
مجدي فتحي السيد

مكتبة الصحابة
بطنطا
ت - ٣٣١٥٨٧
طباعة . نشر . توزيع

قال تعالى: يا أيها الذين آمنوا توبوا إلى الله توبة نصوحا



وجوبها. علاماتها. أقسامها. شروطها. فوائدها

أبو مريم
مجدى بن فتحى السيد

مكتبة الصحابة بطنطا

الطبعة الأولى

فى غرة شــوال سنة ١٤٠٦ هـ

النـــاشر

مكتبة الصحابة

شارع الجنبية الغربى ـ خلف المعهد الأزهرى
طنطا

بسم الله الرحمن الرحيم

إن شئت أن تحظى بجنة ربنـــا   وتفوز بالفضل الكبير الخـــالد

فانهض لفعل الخير واطرق بابه   تجـد الإعانة مـن إله ماجـد

واعكف على هذا الكتاب فإنه   جمع الفضـــائل جمع فذ ناقد

يهدي إليك كلام أفضل مرسل   فيما يقرب من رضـــاء الواحد

فـأدم قـــراءته بقلب خالص   وادع لكاتبـه وكل مســاعد

مقدمة

إن الحمد لله ..

نحمده ، ونستعينه ، ونستغفره ، ونستهديه ، ونعوذ بالله تعالى من شرور أنفسنا ، ومن سيئات أعمالنا ، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له . وأن محمداً عبده ورسوله ..

« يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله حق تقاته ولا تموتن الا وأنتم مسلمون »

« ياأيها الناس اتقوا ربكم الذى خلقكم والذين من قبلكم لعلكم تتقون »

« يا أيها الناس اتقوا ربكم الذى خلقكم من نفس واحدة وخلق منها زوجها وبث منهما رجالا كثيراً ونساء واتقوا الله الذى تساءلون به والأرحام ان الله كان عليكم رقيباً » ..

« يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله وقولوا قولا سديداً ، يصلح لكم أعمالكم ويغفر لكم ذنوبكم ومن يطع الله ورسوله فقد فاز فوزاً عظيماً » ..

ثم .. أما بعد ..

فإن أصدق الحديث كتاب الله عز وجل ، وخير الهدى هدى محمد صلى الله عليه وسلم ـ وشر الأمور محدثاتها ، وكل محدثة بدعة وكل بدعة ضلالة .

* * *

وبعد ..

اخى المسلم .... اختى المسلمة :

اعلموا جميعاً ياعباد الله أن التوبة من الذنوب ، بالرجوع إلى ستار العيوب ، وعلام الغيوب ، واجبة على الفور والدوام .

إن التوبة هى طريق السالكين إلى ربهم ، وزاد المؤمنين فى آخرتهم ، ورأس مال الفائزين فى دنياهم وآخرتهم . فما نجا من نجا فى يوم القيامة ، يوم الحسرة والندامة إلا بالتوبه النصوح ، التى فيها العزم على الإخلاص لله وحده ؛ إنها — هى وحدها — السبيل لتحقيق ما يرضى الله عنا ، والابتعاد عما يغضبه منا ، إنها تمحو الذنوب . وتستر العيوب ،إنها تهدى النفس الإنسانية ، والقلوب البشرية .

ولذا كان السلف الصالح مع ما هم عليه من عمل وعلم ، وزهد وورع كانوا قليلاً ما ينامون ، وكانوا بالأسحار يستغفرون .

وما كان ذلك منهم إلا لعلمهم أنهم مهما فعلوا من طاعات كثيرة فلابد فيها من التقصير حتى أن الواحد منهم كان يقول :

« استغفارنا يحتاج إلى استغفار » ..

ويقول الآخر :

« طوبى لمن صحت له خطوة لا يريد بها إلا وجه الله » .

هكذا كانوا ، ولكن خلف من بعدهم خلف ساروا وراء الشهوات . وتهالكوا على الفانيات ، وزهدوا فى الباقيات الصالحات فقاموا بالمعاصى فى الليل والنهار ، فى السر والعلانية . ولا يستحيون من العلى القهار ، وما فطنوا إلى أنه هو المتكبر الجبار .

فخسروا خسراناً مبيناً ، وسيندمون ندماً عظيما ، إلا إذا عادوا إلى الحليم الغفار . بالتوبة النصوح .

فيها يا عباد الله ..

نعود إلى الله بنفس صافية ، خالية من الحقد والحسد ، والعجب والكبر حتى نفوز بالدنيا والآخرة ، وما ذلك على الله بعزيز .

وفى هذا الكتاب نقف — بحول الله — على التوبة النصوح ، ما هى وكيف تكون ، وما هى علامات قبول التوبة أو ردها ، وما هى الأمور التى

تعين على التوبة النصوح ، وغير ذلك من الأمور الهامة فى التوبة وما توفيقى إلا بالله ، فإن كنت أصبت فمن الله وحده ، وإن كانت الأخرى فمنى ومن الشيطان . وأعوذ بالله من كل شيطان مريد .

اللهم اجعل هذا العمل خالصاً لوجهك الكريم ، واغفر لصاحبه ما تعلمه عنه إنك على كل شيء قدير .

أبو مريم
مجدى بن فتحى السيد

❋ ❋ ❋

بين يدى الكتاب

آيات التوبة فى القرآن

وردت مادة كلمة توب بتصاريفها المختلفة (٨٧) مرة فى القرآن الكريم وهى على الترتيب التالى [١] :

تاب ـ تابا ـ تابوا ـ تبت ـ تبتم ـ أتوب ـ تتوبا ـ يتب ـ يتوبُ ـ يتوبَ ـ يتوبوا ـ يتوبون ـ تب ـ توبوا ـ التواب ـ توبة ـ توبتهم ـ تائبات ـ التائبون ـ توّاب ـ توابُ ـ تواباً ـ التوابين ـ متاب ـ متاباً ..

وهذا يبين لنا أهمية التوبة فى الإسلام ، ومن ناحية أخرى يظهر لنا مدى سعة رحمة الله عز وجل .

* * *

(١) المعجم المفهرس لألفاظ القرآن .

التعريف اللغـــوى
للمـــادة ((تــوب))

قال فى القاموس :

« تاب إلى الله توباً وتوبة ومتاباً وتابة وتتوبة :

رجع عن المعصية وهو تائب وتواب »

ويقال تاب العبد أى رجع إلى طاعة ربه ، وعبد تواب أى كثير الرجوع إلى الطاعة .

وأصل التوبة الرجوع : ـ يقال تاب ، وثاب ، وآب ، وأناب وكلهـا بمعنى رجع .

قال الحليمى رحمه الله (٢) :

كأن المذنب ذاهب أو آبق من الله تعالى لمفارقته طاعته ومخالفته أمـره ، فإذا نزع مما هو فيه ، وعاد إلى الطاعة كان كالعبد يعـود إلى سـيده .. انتهى .

وبعد فياعباد الله إن الله عز وجل أمر بالتوبة فقال :

((وتوبوا الى الله جميعاً)) (٣) ..

ووعد بالقبول فقال عز جل :

((وهو الذى يقبل التوبة عن عباده)) (٤) ..

وفتح باب الأمل والرجاء فقال تبارك وتعالى :

((قل يا عبادى الذين اسرفوا على انفسهم لا تقنطوا من رحمة الله ان الله يغفر الذنوب جميعاً ، انه هو الغفور الرحيم)) (٥) ..

وإليك تفاصيل موضوع التوبة وما يتصل به من أحكام وآداب .

---

(٢) المنهاج فى شعب الايمان ٣ / ١٢١

(٣) سورة النور : ٣١

(٤) سورة الشورى : ٢٥

(٥) سورة الزمر : ٥٣

الباب الأول

فى بيان وجوب التوبة وفضلها

اعلموا يا عباد الله أن العلماء من سلف وخلف قد أجمعوا على أن التوبة واجبة على الفور والدوام ، من كل ذنب صغيراً كان أم كبيراً ، وقد جاء الوحى المبين ، والنبى الأمين ـ صلى الله عليه وسلم ـ بالحث على هذا الأمر العظيم .

فقال الله جل ثناؤه :

« وتوبوا الى الله جميعاً أيها المؤمنون لعلكم تفلحون » (٦) ..

وقال تبارك وتعالى :

« يا أيها الذين آمنوا توبوا الى الله توبة نصوحاً » (٧) ..

وقال عز وجل :

« وأن استغفروا ربكم ثم توبوا اليه يمتعكم متاعاً حسناً » (٨) ..

وقال :

« وهو الذى يقبل التوبة عن عباده ويعفو عن السيئات » (٩) ..

---

(٦) سورة النور : ٣١

(٧) سورة التحريم : ٨

(٨) سورة هود : ٣

(٩) سورة الشورى : ٢٥

وقال :

« فمن تاب من بعد ظلمه وأصلح فان الله يتوب عليه » (١٠) ..

وقال :

« افلا يتوبون الى الله ويستغفرونه والله غفور رحيم » (١١) ..

وقال :

« الا من تاب وآمن وعمل عملا صالحاً فاولئك يبدل الله سيئاتهم حسنات وكان الله غفوراً رحيماً » (١٢) ..

وقال النبى المعصوم ــ صلى الله عليه وسلم ــ الكثير فى بيان ذلك فإليك بعض الأحاديث النبوية فى بيان ذلك :

١ ــ عن أبى هريرة رضى الله عنه قال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول :

« والله إنى لأستغفر الله وأتوب إليه فى اليوم أكثر من سبعين مرة » (١٣)

٢ ــ عن الأغر بن يسار رضى الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم :

« يا أيها الناس توبوا إلى الله واستغفروا ، فإنى أتوب فى اليوم مائة مرة » (١٤) .

٣ ــ عن أبى موسى الأشعرى رضى الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم إن الله يبسط يده بالليل ليتوب مسىء النهار ويبسط يده بالنهار ليتوب مسىء الليل ، حتى تطلع الشمس من مغربها (١٥) .

٤ ــ عن أبى هريرة رضى الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم :

---

(١٠) سورة المائدة : ٣٩
(١١) سورة المائدة : ٧٤
(١٢) سورة الفرقان : ٧٠
(١٣) رواه البخارى فى الصحيح .
(١٤) رواه مسلم فى الصحيح .
(١٥) رواه مسلم فى الصحيح .

« **من تاب قبل أن تطلع الشمس من مغربها تاب الله عليه** »[16] .

٥ ــ عن ابن عباس رضى الله عنهما وأنس بن مالك رضى الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال لو أن لابن آدم وادياً من ذهب أحب أن يكون له واديان ، ولن يملأ فاه إلا التراب ويتوب الله على من تاب[17] .

٦ ــ عن أنس بن مالك رضى الله عنه قال : قال رسول الله ــ صلى الله عليه وسلم :

« لله أشد فرحاً بتوبة عبده حين يتوب إليه من أحدكم كان على راحلته بأرض فلاة ، فانفلتت منه وعليها طعامه وشرابه فأيس منها ، فأتى شجرة واضطجع فى ظلها ، وقد أيس من راحلته ، فبينما هو كذلك إذ هو بها قائمة عنده ، فأخذ بخطامها[18] ثم قال من شدة الفرح اللهم أنت عبدى وأنا ربك ، أخطأ من شدة الفرح »[19] .

٧ ــ عن عبد الله بن عمر رضى الله عنه عن النبى صلى الله عليه وسلم قال :

« إن الله عز وجل يقبل توبة العبد ما لم يغرغر »[20] .

* * *

---

(١٦) رواه مسلم فى الصحيح

(١٧) متفق عليه .

(١٨) الخطام ما وضع فى انف البعير ليقتاد به من حبل ونحوه .

(١٩) متفق عليه وهذه رواية لمسلم .

(٢٠) رواه الترمذى وقال حديث حسن .

ما ورد عن السلف الصالح
فى بيان وجوب التوبة وفضلها

● **سأل رجل عبد الله بن مسعود رضى الله عنه :**

عن ذنب ألم به هل له من توبة ؟ ، فأعرض عنه ثم التفت إليه ، فرأى عينيه تذرفان . فقال له : إن للجنة ثمانية أبواب كلها تفتح وتغلق إلا باب التوبة فإن عليه ملكاً موكلا به لا يغلق فاعمل ولا تيأس .

* * *

● **قال طلق بن حبيب .. رحمه الله :**

إن حقوق الله أعظم من أن يقوم بها العبد ولكن اصبحوا تائبين ، وامسوا تائبين .

* * *

● **وقال سعيد بن المسيب رحمه الله :**

فى قوله عز وجل :

« فانه كان للأوابين غفوراً » (٢١) ..

هو الرجل يذنب ثم يتوب ثم يذنب ثم يتوب .

* * *

● **وقال مجاهد رحمه الله :**

من لم يتب كل صباح ومساء فهو من الظالمين .

* * *

---

(٢١) سورة الاسراء : ٢٥

● **وقال لقمان ـ رحمه الله ـ لابنه :**

يا بنى لا تؤخر التوبة فإن الموت يأتى بغتة .

● **وقال عبد الله بن حبيب رحمه الله :**

إنكم لن تطيقوا غضب الله تعالى عليكم كلما عصيتموه فأمسوا تائبين ، وأصبحوا كذلك تائبين .

***

● **كان الفضيل بن عياض ـ رحمه الله ـ**

يقول للمجاهدين إذا أرادوا أن يخرجوا للجهاد « عليكم بالتوبة فإنها ترد عنكم ما لا ترده السيوف » .

***

● **قال الحسن رحمه الله :**

ابن آدم إياك والتسويف فإنك بيومك ، ولست بغدك .

أدركت أقواماً كان أحدهم أشح على عمره منه على دراهمه .

***

● **قال ابوسليمان الداراني ـ رحمه الله :**

لو لم يبك العاقل إلا على تفويت ما مضى منه فى غير طاعة لكان خليقاً أن يحزنه ذلك إلى الممات . فكيف بمن يستقبل ما بقى من عمره بمثل ما مضى من جهله .

***

● **قال مجاهد رحمه الله :**

ما من يوم إلا ويقول يا ابن آدم قد دخلت عليك اليوم ، ولن أرجع إليك بعد اليوم ، فانظر ماذا تعمل فى . فإذا انقضى طوى إلى يوم القيامة .

ـ قيل لرجل من قيس : أوصنا . قال أنذرتكم سوف .

***

● **قال أحد السلف :**

« إن ملك الموت إذا ظهر للعبد . يبدو علي وجهه ــ أى العبد ــ الأسف والحسرة ما لو كان له الدنيا بحذافيرها لخرج منها » .

وصدق الله العظيم حيث يقول :

« وانفقوا من ما رزقناكم من قبل أن يأتى احـــدكم الموت فيقول رب لولا اخرتنى الى اجل قريب فأصدق وأكن من الصالحين ولن يؤخر الله نفســاً اذا جاء اجلها والله خبير بما تعملون » (٢٢) ..

ــ وقال أحد السلف : أصبحتم فى أمنية ناس كثير .

يعنى أن الأموات كلهم يتمنون حياة ساعة ليتوبوا فيها ، ويجتهدوا فى الطاعة ، ولكن هيهات هيهات لما يشتهون .

نعم يا عباد الله إن السلف الصالح أحسوا بقيمة التوبة فعملوا لهـــا ، لأن العبد العاقل إذا ملك من الأموال الكثير ، ثم ضاعت منه بغير فائـــدة تعود عليه ، بكى عليها لا محالة ، وهذا العمر عبارة عن أنفاس هى رأس مال العبد بها يشترى من نعيم الجنة ما يشاء ، فكيف يضيع ذلك العمر بلا توبة نصـــوح .

* * *

● **قال ابن رجب رحمه الله :**

كم من قائم لله فى هذا الليل قد اغتبط بقيامه فى ظلمة حفرته ، وكم من نائم فى هذا الليل قد ندم على طول نومه ، عندما يرى كرامة الله عز وجـــل للعابدين غداً ، فاغتنموا مسر الساعات والليالى والأيام . انتهى

واعلم أخى المسلم .. وأختى المسلمة ..

أن التوبة ملازمة للعبد فى شبابه ، وكبره ، فى رخائه ، وشدته .

قال الإمام ابن القيم (٢٣) رحمه الله :

---

(٢٢) سورة المنافقون : ١٠ ، ١١

(٢٣) مدارج السالكين ١/١٩٨

« منزل التوبة أول المنازل ، وأوسطها ، وآخرها . فلا يفارقه العبد السالك ، ولا يزال فيه إلى الممات .

وإن ارتحل إلى منزل آخر ارتحل به ، واستصحبه معه ونزل به فالتوبة هى بداية العبد ونهايته ، وقد قال الله تعالى :

« وتوبوا الى الله جميعا ايها المؤمنون لعلكم تفلحون » (٢٤) ..

هذه الآية فى سورة مدنية ، خاطب الله بها أهل الإيمان ، وخيار خلقه أن يتوبوا إليه ، بعد إيمانهم وصبرهم ، وهجرتهم وجهادهم ، ثم علق الفلاح بالتوبة تعليق المسبب بسببه ، وأتى بأداة « لعلّ » المشعرة بالتراخى ، إيذاناً بأنكم إذا تبتم كنتم على رجاء الفلاح فلا يرجو الفلاح إلا التائبون . انتهى .

وبعد .. أما آن لنا أن نعود ، ونندم على ما كان ، ونحسن فيما بقى ، لعل الله يغفر لنا ما سلف .

❊ ❊ ❊

قال الامام ابن الجوزى (٢٥) رحمه الله :

يا صاحب الخطايا أين الدموع الجارية ، يا أسير المعاصى ابك من الذنوب الماضية ..

يا مبارزاً بالقبائح أتصبر على الهاوية ؟

يا ناسياً ذنوبه والصحف للمنسى حاوية ..

أسفاً لك إذا جاءك الموت وما أنبت ، واحسرة لك إذا دعيت إلى التوبة فما أجبت .

كيف تصنع إذا نودى بالرحيل وما تأهبت .

ألست الذى بارزت بالقبائح وما راقبت . انتهى

---

(٢٤) النور : ٣١

(٢٥) التبصرة ١ / ٢٨

قال الشاعر :

قد مضى فى اللهو عمرى
وتناهى فيه أمرى

شمر الأكياس وأنا
واقف قد شيب أمرى

بان ربح الناس دونى
ولحين بان خسرى

ليتنى أقبل وعظى
ليتنى أسمع زجرى

كل يوم أنا رهن
بين آثامى ووزرى

ليت شعرى هل أرى لى
همة فى فك أسرى

أو أرى فى توب صدق
قبل أن أنزل قبرى

ويح قلبى من تناسيه
مقامى يوم حشرى

واشتغالى عن خطايا
أثقلت والله ظهرى

* * *

الباب الثانى

بيــان التوبة النصوح وشروطهـــــا

قال الله عز وجل :

« يا أيها الذين آمنوا توبوا الى الله توبة نصوحاً » (١) ..

قال ابن كثير (٢) رحمه الله .

« أى توبة صادقة جازمة تمحو ما قبلها من السيئات . وتلم شعث التائب وتجمعه وتكفه عما يتعاطاه من الدناءات » . انتهى

اعلم يا أخى المسلم وأنت أختى المسلمة أن مجمــل ما قال العلمــاء فى التوبة النصوح هو :

« ان يقلع عن الذنب فى الحاضر ، ويندم على ما سلف منه فى الماضى ، ويعزم على أن لا يفعل فى المستقبل ، ثم ان كان الحق لآدمى رده اليه بطريقه » ..

وإليكم تفاصيل أقوال السلف فى ذلك :

* * *

● **قال ابن مسعود رضى الله عنه :**

هى التى لا عودة بعدها كما لا يعود اللبن إلى الضرع .

* * *

(١) سورة التحريم : ٨

(٢) تفسير ابن كثير ٤ / ٣٩١

● **قال سعيد بن جبير رحمه الله :**

هى التوبة المقبولة ، ولا تقبل ما لم يكن فيها ثلاثة شروط ، خوف ألا تقبل . ورجاء أن تقبل ، وإدمان الطاعات .

❋ ❋ ❋

● **وقال الحسن رحمه الله :**

التوبة النصوح أن يبغض الذنب الذى أحبه ، ويستغفر منه إذا ذكره .

❋ ❋ ❋

● **وقال سعيد بن المسيب رحمه الله :**

توبة تنصحون بها أنفسكم .

❋ ❋ ❋

● **قال الكلبى رحمه الله :**

التوبة النصوح الندم بالقلب ، والاستغفار باللسان والإقلاع عن الذنب ، والاطمئنان على أن لا يعود .

❋ ❋ ❋

● **قال القرظى رحمه الله :**

يجمعها أربعة أشياء الاستغفار باللسان ، والإقلاع بالأبدان ، وإضمار ترك العود بالجنان ، ومهاجرة سيء الخلان .

❋ ❋ ❋

● **قال الفضيل رحمه الله :**

هو أن يكون الذنب بين عينيه ، فلا يزال كأنه ينظر إليه .

❋ ❋ ❋

● **وقال النووى رحمه الله (٣) :**

التوبة واجبة من كل ذنب . فإن كانت المعصية بين العبد وبين الله تعالى لا تتعلق بحق آدمى : فلها ثلاثة شروط :

أحدها :

الإقلاع عن المعصية .

والثانى :

أن يندم على فعلها .

والثالث :

أن يعزم أن لا يعود إليها أبداً .

فإن فقد أحد الثلاثة ، لم تصح توبته . وإن كانت المعصية تتعلق بآدمى فشروطها أربع ، هذه الثلاثة وأن يبرأ من حق صاحبها فإن كانت مالاً أو نحوه رده إليه . وإن كانت حد قذف ونحوه مكنه منه أو طلب عفوه . وإن كانت غيبة استحله منها ، ويجب أن يتوب من جميع الذنوب . فإن تاب من بعضها صحت توبته — عند أهل الحق — من ذلك الذنب ، وبقى عليه الباقى ، وقد تظاهرت دلائل الكتاب والسنة وإجماع الأمة على وجوب التوبة .. انتهى .

فهيا يا عباد الله عودوا إلى ربكم من قبل يوم الحساب . واعملوا لأنفسكم من قبل أن تلتف الساق بالساق . إن الله جعل الليل والنهار لمن أراد الذكرى . وإنما جعلا سبيلاً للمؤمنين ليكونوا لربهم من المستعدين ، وجعلا وبالاً على الغافلين ، الذين ساروا خلف كل شيطان مريد .

كما قال عز وجل :

((وهو الذى جعل الليل والنهار خلفة لمن أراد أن يذكر أو أراد شكوراً)) (٤) ..

* * *

---

(٣) رياض الصالحين (١٧) .

(٤) سوة الفرقان : ٦٢ .

قال الحسن رحمه الله فى تفسيرها :

من عجز بالليل كان له من أول النهار مستعتب . ومن عجز بالنهار كان له من الليل مستعتب .

وقال : ليس يوم من ايام الدنيا إلا يتكلم يقول يا أيها الناس إنى يوم جديد ، وعلى ما يعمل فى شهيد .

* * *

● **وقال عيسى بن مريم عليه السلام :**

إن هذا الليل والنهار خزانتان فانظروا ما تضعون فيهما ، اعملوا الليل لما خلق له ، واعملوا النهار لما خلق له .

هذا يا أخى ما جاء من أقوال العلماء فى تعريف التوبة النصوح فانظر إليها ، وتدبر وفكر ، كم أنها كبيرة ، وكيف هى عسيرة . ولكن اعلم أنك لو قمت بها لفزت فوزاً عظيماً .



التـــــــوبة

فاليك اخى المسلم ويا اختى المسلمة بعض النماذج البشرية التى تابت الى الله ــ عز وجل ــ توبة نصوحا ، ففازت بالدنيا والآخرة :

١ ــ عن أبى سعيد الخدرى أن نبى الله صلى الله عليه وسلم قال كان فيمن كان قبلكم رجل قتل تسعة وتسعين نفساً ، فسأل عن أعلم أهل الأرض فدل على راهب فأتاه فقال : إنه قتل تسعة وتسعين نفساً ، فهل من توبة ، فقال : لا ، فقتله فكمل به المائة . ثم سأل عن أعلم أهل الأرض ، فدل على رجل عالم ، فقال إنه قتل مائة نفس فهل له من توبة ؟ فقال : نعم ، ومن يحول بينه وبين التوبة انطلق إلى أرض كذا وكذا فإن بها اناساً يعبدون الله تعالى فاعبد الله معهم ولا ترجع إلى أرض كذا وكذا (٥) فإنها أرض سوء ، فانطلق حتى إذا نصف الطريق ، أتاه الموت ، فاختصمت فيــه ملائكة الرحمــة ، وملائكة العذاب ، فقالت ملائكة الرحمة : جاء تائباً مقبلا بقلبه إلى الله تعالى ، وقالت ملائكة العذاب إنه لم يعمل خيراً قط ، فأتاهم ملك فى صورة آدمى فجعلوه بينهم ــ أى حكماً ــ فقال :

قيسوا ما بين الأرضين فإلى أيتهما كان أدنى فهو له ، فقاسوا ، فوجدوه أدنى إلى الأرض التى أراد فقبضتــه ملائكة الرحمــة » (٦) وفى رواية فى الصحيح :

« فأوحى الله تعالى إلى هذه الأرض أن تباعدى ، وإلى هذه أن تقربى ، وقال قيسوا ما بينهما ، فوجدوه إلى هذه أقرب بشبر فغفر له » .

---

(٥) اى الارض التى ارتكب نيها هذه المعاصى وهى القتل . فعلى الانسان ان يبتعد عن المكان الذى كان يعصى الله فيه اذا أراد التوبة .

(٦) متفق عليه .

٢ ــ عن عمران بن حصين رضى الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم أتته امرأة من جهينة وهى حبلى من الزنا .

فقالت : يا رسول الله أصبت حداً فأقمه علىَّ ، فدعا نبى الله صلى الله عليه وسلم وليها فقال له احسن إليها فإذا وضعت فأتنى ففعل ، فأمر نبى الله صلى الله عليه وسلم فشدت عليها ثيابها ، ثم أمر بها فرجمت ، ثم صلى عليها .

فقال له عمر تصلى عليها يا رسول الله وقد زنت ؟

فقال صلى الله عليه وسلم : لقد تابت توبة لو قسمت بين سبعين من أهل المدينة لوسعتهم ، وهل وجدت أفضل من أن جادت بنفسها لله عز وجل (٧) .

٣ ــ عن بريدة بن الخصيب رضى الله عنه قال : إن ماعز بن مالك أتى رسول الله صلى الله عليه وسلم . فقال يا رسول الله إنى ظلمت نفسى وزنيت وإنى أريد أن تطهرنى فرده ، فلما كان الغد أتاه فقال يا رسول الله إنى قد زنيت فرده الثانية ، فلما كان فى الثالثة أمر به فحفر له حفرة ثم أمر به فرجم ، فكان الناس فيه فريقين ، فقائل يقول : لقد هلك وأحاطت به خطيئته ، وقائل يقول ما توبة أصدق من توبته ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم لقد تاب توبة لو قسمت بين أمة لوسعتهم » (٨) .

فانظروا يا عباد الله إلى التوبة النصوح وما لها عند الله من ثواب عظيم ، وأجر جزيل ، فما علينا إلا أن نتذكر سعة رحمة الله ونعود إليه فى خشوع وخضوع ، بالليل والنهار .

* * *

ويقول الامام ابن رجب (٩) رحمه الله :

فى بيان ما حدث من ماعز والمرأة الغامدية :

---

(٧) رواه مسلم فى الصحيح .
(٨) رواه مسلم فى الصحيح .
(٩) التبصرة ١ / ٣٦٠ .

« اعلم أن التائب الصادق كلما اشتد ندمه زاد مقته لنفسه على قبح زلته ، فانظر إلى مقت هؤلاء أنفسهم ــ حتى أسلموها إلى الهلاك غضباً عليها لما فعلت . انتهى .

نعم إنهم علموا أن إقامة الحدود مكفرات للذنوب ، فأرادوا أن يعودوا إلى الله وقد أصبحوا في طهر من دنس المعاصي ، أرادوا الآخرة فعملوا لها ، وخافوا من عذاب الآخرة ، فطهروا أنفسهم وهم في الدنيا .

❊ ❊ ❊

قال الامام ابن الجوزى :

لو رأيت التائب لرأيت جفناً مقروحاً ، تبصره في الأسحار على باب الاعتذار ، سمع قول الإله يوحى فيما يوحى .

« توبوا الى الله توبة نصوحاً » ..

مطعمه يسير ، وحزنه كثير ، أنحل بدنه الصيام ، وأتعب قدمه القيام ، فبذل جسداً وروحاً .

❊ ❊ ❊

« توبوا الى الله توبة نصوحاً » ..

أين من يبكى جنايات الشباب التى بها اسودّ الكتاب ؟

أين من يأتى إلى الباب يجد الباب مفتوحاً .

❊ ❊ ❊

« توبوا الى الله توبة نصوحاً » ..

يا نادماً على الذنوب أين أثر ندمك ؟

أين بكاؤك على زلة قدمك ؟

---

(١٠) التبصرة ١ / ٣٦٥

أين حذرك من أليم العقاب ؟

أين قلقك من خوف العتاب ؟

أتعتقد أن التوبة قول باللسان ، إنما التوبة دواء يطهر الإنسان ، جرد قلبك من الأقذار ، ثم ألبسه الاعتذار ، ثم حله حلة الانكسار ، ثم أقمه على باب الدار .

إخواني ذهبت الأيام ، وكتبت الآثام ، وإنما ينفع الملام متيقظاً ، والسلام .

* * *

الباب الثالث

فوائد التوبة النصوح

اعلم عبد الله أن للتوبة النصوح من الفوائد ما لا يعلمه إلا الله عز وجل وقد تكلم الكثير من السلف ـ رضى الله عنهم ـ عن هذه الفوائد وأكثروا من ذكرها ومن خير ما قيل فى ذلك ما قاله الإمام الراغب الأصفهانى [1] يقول :

الأولى :

أنه قد جرب العيوب وعرف مداخل الشيطان على الإنسان فيكون أهدى إلى الاحتراز من الشر .

الثانية :

أن المذنب التائب محتشم قد غلب الخوف على قلبه فيأتى باب مولاه وهو خزيان منكسر فعاد وجلاً خائفاً .

الثالثة :

أن التائب قد حلب الدهر خيره ، وشره حلوه ومره فهو أرفق بالمذنبين فلا يعجب بنفسه ويزرى بغيره . انتهى .

* * *

وقال الامام ابن القيم (٢) رحمه الله فى تلك الفوائد :

احدها :

أن عبودية التوبة من أحب العبودبات إلى الله . وأكرمها عليه فإنه سبحانه

---

(١) الذريعة (٣٤١) .

٢) مدارج السالكين ١ ٣٢٣

يحب التوابين . ولو لم تكن التوبة أحب الأشياء إليه ، لما ابتلى بالذنب اكرم الخلق عليه ، فلمحبته لتوبة عبده ابتلاه بالذنب الذى يوجب وقوع محبوبه من التوبة ، وزيادة محبته لعبده .

ثانيها :

أن للتوبة عنده سبحانه منزلة ليست لغيرها من الطاعات . ولهذا يفرح سبحانه بتوبة عبده حين يتوب إليه أعظم فرح يقدر ، كما مثله النبى — صلى الله عليه وسلم — بفرح الواجد لراحلته التى عليها طعامه وشرابه فى الأرض المهلكة ، بعدما فقدها ، وأيس من أسباب الحياة . ولم يجىء هذا الفرح فى شىء من الطاعات سوى التوبة . ومعلوم أن لهذا الفرح تأثيراً عظيماً فى حال التائب وقلبه ، ومزيده لا يعبر عنه . وهو من أسرار تقدير الذنوب على العباد . فإن العبد ينال بالتوبة درجة المحبوبية .

ثالثها :

أن عبودية التوبة فيها من الذل والانكسار ، والخضوع ، والتملق لله ، والتذلل ، ماهو أحب إليه من كثير من الأعمال الظاهرة .

رابعاً :

أن حصول مراتب الذل والانكسار للتائب أكمل منها لغيره . فإنه قد شارك من لم يذنب فى ذل الفقر ، والعبودية ، والمحبة . وامتاز عنه بانكسار قلبه بالمعصية . والله سبحانه وتعالى أقرب ما يكون إلى عبده عند ذله ، وانكسار قلبه كما فى الإسرائيليات عن موسى عليه السلام قال : يارب أين أجدك ؟ قال عز وجل : عند المنكسرة قلوبهم من أجلى وهذا — والله أعلم — هو السر فى استجابة دعوة الثلاثة : المظلوم والمسافر والصائم .

خامساً :

أن الذنب قد يكون أنفع للعبد — إذا اقترنت به التوبة — من كثير من الطاعات . وهذا معنى قول بعض السلف « قد يعمل العبد الذنب فيدخل به الجنة . ويعمل الطاعة فيدخل بها النار » .

قالوا : وكيف ذلك ؟ قال يعمل الذنب فلا يزال نصب عينيه ، إن قام وإن قعد . وإن مشى ذكر ذنبه . فيحدث له انكساراً ، وتوبة ، واستغفاراً ، وندماً ، فيكون ذلك سبب نجاته ، ويعمل الحسنة فلا تزال نصب عينيه . إن نام وإن مشى ، كلما ذكرها أورثته عجباً وكبراً ، فتكون سبب هلاكه .

سادساً :

وهو قوله تعالى :

« الا من تاب وآمن وعمل عملا صالحاً فأولئك يبدل الله سيئاتهم حسنات . وكان الله غفورا رحيماً » (٣) ..

وهذا من أعظم البشارة للتائبين إذا اقترن بتوبتهم إيمان وعمل صالح وهو حقيقة التوبة . قال ابن عباس رضى الله عنهما :

ما رأيت النبى — صلى الله عليه وسلم — فرح بشىء قط فرحه بهذه الآية لما أنزلت . وفرحه بنزول

« انا فتحنا لك فتحاً مبيناً ليغفر لك الله ما تقدم من ذنبك وما تأخر » (٤)

واختلفوا فى صفة التبديل .

فقال ابن عباس وأصحابه : هو تبديلهم بقبائح أعمالهم محاسنها . فبدلهم بالشرك إيماناً . وبالزنا عفة وإحصاناً ، وبالكذب صدقا . وبالخيانة أمانة .

وقال سعيد بن المسيب : هو تبديل الله سيئاتهم التى عملوها بحسنات يوم القيامة . فيعطيهم مكان كل سيئة حسنة .

سابعاً :

هو أن التائب قد بدل كل سيئة بندمه عليها حسنة . إذ هو توبة تلك

---

(٣) سوة الفرقان : ٧٠
(٤) سورة الفتح : ١ ، ٢

السيئة ، والندم توبة . والتوبة من كل ذنب حسنة . فصار له مكان كل سيئة حسنة بهذا الاعتبار .

ثامناً :

أن ذنب العارف بالله وبأمره قد يترتب عليه حسنات اكبر منه وأكثر ، وأعظم نفعاً ، واحب إلى الله من عصمته من ذلك الذنب . من ذل وانكسار وخشية ، وندم ، وتدارك بمراغمة العدو بحسنة أو حسنات أعظم منه حتى يقول الشيطان :

ياليتنى لم أوقعه فيما أوقعته فيه .

*** * ***

وقال الشيخ الشقمى الرستاقى – فى بيان بعض الفوائد (٥) :

والتوبة الرجعة إلى الله تعالى من كل ذنب قال الله تعالى :

« غافر الذنب وقابل التوب » ..

وتاب الله على العبد توبة ومتاباً . قال الله تعالى :

« وانا التواب الرحيم » ..

وقيل يحصل بالتوبة : التوفيق للطاعات . والذنوب تورث الحرمان من الحسنات ، وتعقب الخذلان عن الإكثار من أعمال الخيرات لأن الذنوب بمنزلة القيد للعبد ، يمنع من السعى إلى أعمال الطاعة ، وعن الخفة والنشاط إليها .

وقيل إن الإصرار على الذنوب يسود القلوب . ويلقيها فى ظلمة وقساوة ، وربما تقود صاحبها إلى الكفر والقساوة والعصيان . وربما قاد الذنب إلى ذنب أعظم منه ، ولا يطمع المصر على المعصية القريب من الشيطان بقرب الله تعالى ، والوصول إلى رضاه إلا بتوبة وندم وإخلاص عمل .

---

(٥) منهج الطالبين ٢ , ٣٢٩

وقيل إذا لم تقو على قيام الليل ، وصيام النهار فاعلم أنك مكبول قد كبلتك خطاياك ، فالتوبة عن المعاصى فرض لازم .

والتوبة توبة القلب عن الذنوب ، وترك اختيار الذنب ، وتوطين القلب على الطاعة ، والعزم على أن لا يعود إلى الذنب أبداً . فهذه شرائط التوبة وأركانها فإذا حصلت ، وكملت ، فهى توبة حقيقية صادقة إن شاء الله تعالى أما عن الذى يحتاج إليه السائر فى طريق التوبة يقول الشيخ :

« ويحتاج التائب إلى ذكر ثلاثة أشياء ، ذكر غاية قبح الذنوب ، وشدة عقوبة الله تعالى عليها وأليم سخطه وغضبه الذى لا طاقة للعبد به ، وضعف العبد وقلة حيلته فى ذلك .

فإن من لا يحتمل جسده حر الشمس ، وقرص نملة فكيف يحتمل حر نار جهنم ، وضرب الزبانية بمقامع الحديد ، ولسع حيات كأعناق النجب ، وعقارب كالبغال ، فنعوذ بالله من سخطه وعذابه ، فمن واظب على ذكر هذه حمله على التوبة النصوح . والله الموفق بفضله . انتهى



الباب الرابع

بيـــان وقت التـــوبة

اعلموا عباد الله أن الله ـ عز وجل ـ قد حدد للتوبة موعداً ، وقد بين ذلك فى كتابه الكريم فى قوله جل ثناؤه :

« انما التوبة على الله للذين يعملون السوء بجهالة ثم يتوبون من قريب فاولئك يتوب الله عليهم وكان الله عليماً حكيماً » ..

قال مجاهد :

كل من عصى الله خطأ أو عمداً فهو جاهل حتى ينزع عن الذنب .

* * *

وقال ابن عباس :

من جهالته عمل السوء .

* * *

وقال الحسن البصرى :

« ثم يتوبون من قريب » ما لم يغرغر .

* * *

وقال ابن عباس :

« ثم يتوبون من قريب » قبل المرض .

* * *

---

(١) سورة النساء : ١٧

قال ابن رجب :

الجمهور على أن التوبة من قريب أى قبل الموت فالعمــر كله قريب ، ومن تاب قبل الموت فقد تاب من قريب ، ومن مات ولم يتب فقــد بعد كل البعد ، فمن تاب قبل أن يغرغر فقد تاب من قريب . انتهى .

اعلموا عباد الله أن هذه الآية الكريمة قد بينت ، ودلت على أمر عظيم ، ألا وهو أن الله ــ تبارك وتعالى ــ يقبل توبة العــاصى مادامت الروح فى ذلك البدن ، كما ورد .

● عن عبد الله بن عمر رضى الله عنهما عن النبى صلى الله عليــه وسلم قال :

« إن الله عز وجل يقبل توبة العبد ما لم يغرغر » (٢) .

* * *

ولذلك يقول ابن رجب رحمه الله :

هذا إشارة إلى أفضل أوقات التوبة ، وهو أن يبادر الإنسان بالتوبة فى صحته ، قبل نزول المرض به حتى يتمكن حينئذ من العمل الصالح ولذلك قرن الله تعالى التوبة بالعمل الصالح فى مواضع كثيرة من القرآن الكــريم كقوله عز وجل :

((ومن تاب وعمل صالحاً فانه يتوب الى الله متاباً)) (٣) ..

وأيضاً فالتوبة فى الصحة ورجاء الحياة تشبه الصدقة بالمال فى الصحــة ورجاء البقاء .

والتوبة عند حضور الموت تشبه الصدقة بالمال عند الموت ، فكأن من لا يتوب إلا فى مرضه قد استفرغ صحته وقوته فى شهوات نفسه ، ولذة دنياه ، فإذا أيس من الدنيا والحياة فيها تاب حينئذ وترك ما كان عليه ، فأين

---

(٢) رواه أحمد والترمذى وابن حبان وقال الترمذى حديث حسن .
(٣) سوة الفرقان : ٧١

توبة هذا من توبة من يتوب من قريب ، وهو صحيح قوى قادر على المعاصى فيتركها خوفاً من الله عز وجل ، ورجاء ثوابه وايثاراً لطاعته على معصيته .. انتهى .

* * *

● **وقال على رضى الله عنه :**

لا يزال العبد فى مهل من التوبة ما لم يأته ملك الموت يقبض روحه ، فإذا نزل ملك الموت فلا توبة حينئذ .

* * *

● **وقال ابن عمر رضى الله عنه :**

التوبة مبسوطة ما لم ينزل ملك الموت . واعلموا يا عباد الله أن الإنسان مادام يأمل الحياة فإنه يقطع أمله من الدنيا ، وقد لا تسمح نفسه بالاقلاع عن لذاتها وشهواتها من المعاصى ، ويرجيه الشيطان ـ عليه اللعنة ـ بالتوبة فى آخر عمره . فإذا تيقن الموت أفاق من سكراته بشهواته الدنيوية ، فندم عند ذلك على تفريطه فى جنب الله ، وندم ندما شديدا ، حتى كاد أن يقتل نفسه ، ويطلب الرجعة إلى الدنيا ليتوب ويعمل صالحا فلا يجاب إلى شىء من ذلك ، فيجتمع عليه سكرة الموت مع حسرة الفوت . وقد حذرنا عز وجل من ذلك فقال :

« وأنيبوا الى ربكم واسلموا له من قبل ان ياتيكم العذاب ثم لا تنصرون . واتبعوا أحسن ما أنزل اليكم من ربكم من قبل أن ياتيكم العذاب بغتة وأنتم لا تشعرون . أن تقول نفس يا حسرتى على ما فرطت فى جنب الله ، وان كنت لمن الساخرين . أو تقول لو أن الله هدانى لكنت من المتقين ، أو تقول حين ترى العذاب لو أن لى كرة فأكون من المحسنين » (٤) ..

فاسمع يا عبد الله ، وأنت يا أمة الله إلى التفجع والتحسر الواضح من الآيات ، بل والله لقد سمع بعض المحتضرين عند احتضاره يلطم وجهه ويقول « يا حسرتى على ما فرطت فى جنب الله » . ويقول الآخر : « سخرت بى

(٤) سورة الزمر : ٥٤ ــ ٥٨

الدنيا حتى ذهبت أيامى » . ويقول الثالث : « ويحكم يا إخوانى لا تغتروا بشبابكم ولا تغرنكم الدنيا كما غرتنى » وصدق الله العظيم حيث يقول :

« حتى اذا جاء احدهم الموت قال رب ارجعون ، لعلى أعمل صالحاً فيما تركت كلا انها كلمة هو قائلها » (٥) ..

وقال عز وجل :

« وحيل بينهم وبين ما يشتهون » (٦) ..

❊ ❊ ❊

● **قال عمر بن عبد العزيز رحمه الله :**

إنهم طلبوا التوبة حين حيل بينهم وبينها .

❊ ❊ ❊

● **وقال الحسن رحمه الله :**

اتق الله يا ابن آدم لا يجتمع عليك خصلتان سكرة الموت وحسرة الفوت .

❊ ❊ ❊

● **وقال ابن السماك :**

احذر السكرة والحسرة أن يفجأك الموت وأنت على الغرة فلا يصف واصف قدر ما تلقى ولا قدر ما ترى .

❊ ❊ ❊

● **وقال يحيى بن معاذ رحمه الله :**

الدنيا خمر الشيطان من سكر منها لم يفق إلا فى عسكر الموتى نادماً مع الخاسرين .

❊ ❊ ❊

● **قال ابن رجب رحمه الله :**

غاية أمنية الموتى فى قبورهم ساعة يستدركون فيها ما فاتهم من توبة ،

---

(٥) سورة المؤمنون : ٩٩ ، ١٠٠ (٦) سورة سبأ : ٥٤

وعمل صالح ، وأهل الدنيا يفرطون فى حياتهم فتذهب أعمارهم فى الغفلة ضياعاً .

* * *

● **وقال عمربن عبد العزيز رحمه الله :**

قد خاب وخسر من خرج من تحت رحمة الله التى وسعت كل شىء ، وحرم الجنة التى عرضها السموات والأرض ، وباع قليلاً بكثير ، وفانياً بباق .

* * *

● **قال ابن الجوزى رحمه الله (٧) :**

طوبى لمن غسل درن الذنوب بتوبة ، ورجع عن خطاياه قبل فوت الأوبة ، وبادر الممكن قبل أن لا يمكن .

من رأيت من آفات دنياه سلم ؟ ومن شاهدته صحيحاً وما سقم ، وأى حياة بالموت لم تنختم ؟ وأى عمر بالساعات لم ينصرم ؟ إن الدنيا لغرور حائل ، وسرور إلى شرور آيل ، تردى مستزيدها ، وتؤذى مستفيدها ، بينما طالبها يضحك أبكته ، ويفرح بسلامته أهلكته ، فندم على زلله إذ قدم على عمله ، وبقى رهين خوفه ووجله ، وود أن لو زيد ساعة فى آجله ، فما هو إلا أسير فى حفرته ، وخسير فى سفرته ، وهذه وإن كانت صفة من عنا نأى فكذا تكون لو أن العاقل ارتأى .

* * *

قال الشاعر :

سبيلك فى الدنيا سبيل مسافر
ولابد من زاد لكل مسافر

---

(٧) التبصرة ١ / ٢٦

ولابد للإنسان من حمل عدة
ولاسيما إن خاف سطوة قاهر

وطرقك طرق ليس تسلك دائماً
وفيها عقاب بعد صعب القناطر

* * *

● **وقال الحسن البصري رحمه الله :**

يا ابن آدم بع عاجلتك بعاقبتك تربحهما جميعاً ، ولا تبع عاقبتك بعاجلتك فتخسرهما جميعاً ، الثواء ههنا قليل ، وقد أسرع بخياركم فماذا تنتظرون ، المعاينة فكأنها والله قد كانت ، وإنما ينتظر بأولكم أن يلحق بآخركم .

يا ابن آدم دينك دينك ، فإن سلم لك دينك ، سلم لك لحمك ودمك ، وإن تكن الأخرى فإنها نار لا تطفأ ، ونفس لا تموت ، إنك معروض على ربك ، ومرتهن بعملك ، فخذ مما في يديك عند الموت يأتيك الخير .

يا ابن آدم ترك الخطيئة أهون من معالجة التوبة .

يا ابن آدم لا تعلق قلبك بالدنيا فتعلقه بشر معلق ، قطع حبالها وأغلق عنك بابها ، حسبك ما بلغك المحل .

* * *

الباب الخامس

فى بيـــان علامات قبـــول التوبة أو ردهـــــــــا

اعلم أخى المسلم ..... وأنت أختى المسلمة ..

أن للتوبة المقبولة من العلامات الكثير ، وكذلك للتوبة المردودة على صاحبها الكثير من العلامات وقد ذكرهما الإمام ابن القيم [1] رحمه الله ، وها نحن نوجز كلا منهما على حدة .

أولا علامات التوبة المقبولة :

١ ـ أن يكون بعد التوبة ـ أى العبد ـ خيراً مما كان قبلهـا قلت : نعم والله ، لابد للعبد أن ينظر إلى نفسه بعد التوبة هل زاد فى الحسنات ، أما أنه كما هو يسير فى طريق السيئات ، فإن كانت الأولى فبها ونعمت ، وإن كانت الأخرى فليعلم ذلك المسكين أن الله ـ عز وجل ـ قد رد عليه التوبة .

٢ ـ أنه لا يزال الخوف مصاحباً له لا يأمن مكر الله طرفة عين .

٣ ـ انخلاع قلبه ندماً وخوفاً ، وهذا على قدر عظيم الجناية وصغرها .

فمن لم ينقطع قلبه فى الدنيا على ما فرط حسرة وندماً ، تقطع فى الآخرة إذا حقت الحقائق ، وعاين ثواب المطيعين ،وعقاب العاصين ، فلابد من تقطع القلب إما فى الدنيا ، وإما فى الآخرة .

---

(١) انظر مدارج السالكين ١ / ٢٠٦

٤ ــ ذل وخضوع خاص لا يكون لغير المذنب يجتمع عليه ، وعلى العبد أن ينتفع بذلك ، بأن يلقى بنفسه على بساط رحمة الله ، ويطــرق أبوابه

« أسألك بعزك وذلى إلا رحمتى ..

أسألك بقوتك وضعفى ، وبغناك وفقرى إليك ، هذه ناصيتى الكاذبة الخاطئة بين يديك ، عبيدك سواى كثير ، وليس لى سيد سواك .

لا ملجأ ولا منجا منك إلا إليك .

أسألك مسألة المسكين ، وأبتهل إليك ابتهال الخاضع الذليل ، وأدعوك دعاء الخائف الضرير ، سؤال من خضعت لك رقبته ، ورغم لك أنفــه ، وفاضت لك عيناه ، وذل لك قلبه .

* * *

قال الشــاعر :

يا مــن ألــوذ به فيـــما أؤمـــله
ومــن أعــوذ بــه ممـــا أحاذره

لا يجبر النـــاس عظـــماً أنت كاسره
ولا يهيضـــــون عظمـــاً أنت جـــابره

هذا يا عباد الله كان عن علامات التوبة المقبولة عند الله عز وجل .

* * *

علامات التـــوبة المردودة

١ ـ ضعف العزيمة ، والتفات القلب إلى الذنب الفينة بعد الفينة ، وتذكر حلاوة مواقعته .

قلت نعم والله إنها توبة الكذابين ، كلما زينت له نفســه المعصــية قام بفعلها مجترئا على الله ، يستحى من الناس ، ولا يستحى من خالق الناس ، ويخشى الناس ، ولا يخشى رب الناس .

٢ ـ طمأنينته ووثوقه من نفسه بأنه قد تاب ، حتى كأنه قــد أعطى منشوراً بالأمان . فهذا من علامات اتهام تلك التوبة .

٣ ـ جمود العين ، واستمرار الغفلة ، وقسوة القلب ، وما أبعد ذلك القلب من الله .

قلت : نعم يا عباد الله إن أبعد القلوب مــن الله عز وجــل ذلك القلب القاسى ، الذى لا يخشى الموت وما فيه ، ولا القبر وما فيه ، ولا النار وما بها ، إنه يحتاج إلى نيران الآخرة حتى تذيب من قسوته .

٤ ـ أن لا يســتحدث بعد التوبة أعمالاً صالحة ، لم تكن له قبــل الخطيئة .

ولكن لابد لنا عباد الله أن نعلم بيقين أننا سنقع فى الخطايا مرات كثيرة بل لا تحصى ، ولكن ما علينا إلا اللجوء إلى التوبة النصوح انظروا إلى العبد إذا سقط فى أوحال الطين والماء هل يترك نفسه فى ذلك الوضع ، وأليس بعد القيام يغسل الأقذار ، ويضع الأعطار ، كذلك العبــد منا إذا وقع فى المعاصى يعود إلى ربه ، حتى يصل إلى دار الخلد . وصدق رسول الله صلى الله عليه وسلم حيث يقول :

« لو لم تذنبوا لذهب الله بكم ثم لجاء بقـوم يذنبون ثم يسـتغفرون فيغفر لهم » (٢) .

ويقول ابن رجب معلقاً على هذا الحديث :

« المراد بهذا أن لله تعالى حكمة فى إلقاء الغفلة على قلوب عباده أحياناً حتى تقع منهم بعض الذنوب » . ثم قال مبيناً هذه الحكمة :

« اعتراف المذنبين بذنوبهم وتقصيرهم فى حق مولاهم ، وتنكيس رؤوس العجب ، أحب إلى الله من فعل كثير من الطاعات ، فإن دوام الطاعات قـد توجب لصاحبها العجب . انتهى .

❊ ❊ ❊

● **قال الحسن البصرى رحمه الله :**

إن العبد ليعمل الذنب فلا ينساه ، ولا يزال متخوفاً منه حتى يدخـل الجنة .



(٢) رواه مسلم فى الصحيح .

من فوائد النظر الى المعاصى

واعلموا ــ يا عباد الله ــ ان للعبد من وراء المعاصى ــ بعد التدبر والفكر ــ الكثير من الفوائد ، وقد ذكر الامام ابن القيم ــ رحمه الله (٣) ــ منها الكثير وهذا هو ملخص لها :

اولا ــ

أن يعرف العبد أنه سبحانه العزيز الذى يقضى بما شاء ، وأنه لكمال عزته حكم على العبد وقضى عليه ، بأن قلب قلبه ، وصرف إرادته على ما يشاء ، وهذا من كمال عزته إذ لا يقدر على ذلك إلا الله .

ثانيــاً :

أن يشهد أن الكمال والحمد لله ، وأن العبد نفسه أولى بالتقصير والذم ، والعيب ،وكلما ازداد شهوده لذله وعيبه ، ازداد شهوده لعزة الله وكماله .

ثالثاً :

أن يعرف بره ــ سبحانه وتعالى ــ فى ستره عليه حال ارتكاب المعصية مع كمال رؤيته له . ولو شاء لفضحه بين خلقه ، وهذا من كمال بره فيعلم كيف أنه هو البر الغفور .

رابعاً :

معرفة العبد كرم ربه فى قبول العذر منه إذا اعتذر إليه ، بنحو ما تقدم فيشهد فضله فى مغفرته ، فإن المغفرة فضل من الله . وإلا فلو أخذك بمحض حقه ، كان عادلاً ، وإنما عفوه بفضله لا باستحقاقك .

---

(٣) مدارج السالكين ١ / ٢٢٥ ، مفتاح دار السعادة ٢ / ١٨٤

خامساً :

أن يعرف العبد حاجته إلى حفظه له ، ومعونته ، فقد أجمع العلماء بالله على أن التوفيق أن لا يكل الله العبد إلى نفسه ، وأجمعوا على أن الخذلان أن يخلى بينه وبين نفسه .

سادساً :

من معرفة عزته فى قضائه ، وبره فى ستره ، وحلمه فى إمهاله ، وكرمه فى قبول العذر منه ، وفضله فى مغفرته ، يعرف العبد أنه مقهور ناصيته بيد غيره ، لا عصمة له إلا بعصمته ، ولا توفيق إلا بمعونته ، فهو ذليل حقير ، فى قبضة عزيز حميد .

سابعاً :

إقامة حجة عدلة من الله على عبده ، ليعلم العبد أن لله عليه الحجة البالغة فإذا ما أصابه من مكروه فلا يقال من أين هذا ، ولا من أين أتيت ، ولا بأى ذنب أصبت . فما أصاب العبد من مصيبة قط دقيقة ولا جليلة إلا بما كسبت يداه ، وما يعفو الله عنه أكثر وما نزل بلاء قط إلا بذنب ، ولا رفع بلاء إلا بتوبة .

ولذا وضع الله المصائب والمحن رحمة بين عباده يكفر بها من خطاياهم فهى من أعظم نعمه عليهم .

ثامنا :

أنه إذا عرف هذا فأحسن إلى من أساء إليه ، ولم يقابله باساءته اساءة مثلها تعرض بذلك لمثلها من ربه تعالى . وأنه سبحانه يقابل إساءته وذنوبه بإحسانه كما كان هو يقابل بذلك اساءة الخلق اليه ؛ والله أوسع فضلاً وأكرم .

فليتأمل هو حاله مع الله كيف هو مع فرط إحسانه إليه ، وحاجته هو إلى ربه وهو هكذا له .

فإذا كان العبد هكذا لربه ، فكيف ينكر أن يكون الناس له بتلك المنزلة

تاسعاً :

إذا شهد ذنوبه ومعاصيه ، وتفريطه فى حق ربه ، استكثر القليل من نعم ربه عليه . ولا قليل منه ، لعلمه أن الواصل إليه منها كثير على مسىء مثله .

ولو لم يكن فى فوائد الذنب إلا هذا لكفى به .

عاشراً :

أنه يوجب له الإمساك عن عيوب الناس ، والفكر فيها فإنه فى شغل بعيب نفسه ، فطوبى لمن شغله عيبه عن عيوب الناس ، وويل لمن نسى عيبه وتفرغ لعيوب الناس .

قلت : ـ سبحان الله ، اذا كانت تلك الفوائد تأتى للعبد من وراء المعاصى ، فكيف بالحسنات ، انها أعظم ، ولكننا لا نتفكر ، ولا نتذكر ، والا لقمنا بملء الليل والنهار بالحسنات ..

فكيف بنا ونحن نغرق فى السيئات . اللهم اغفر لنا ، واستر علينا بفضلك ومنك .

* * *

الباب السادس

بيان أقسام العباد في التوبة

اعلموا عباد الله أن الناس ينقسمون بحسب التوبة ــ لا بحسب المال والجاه ــ هل هى توبة نصوح أم توبة كاذبة فما على كل عبد مسلم وأمة مسلمة إلا أن ينظروا جميعاً فى أى الأقسام يكونون .

وقد ذكرها الإمام الغزالى [1] ــ رحمه الله وإليك إياها مع الاختصار وهى مرتبة بحسب مكانة صاحبها من أعلى السابقين إلى الظالمين لأنفسهم

* * *

القسم الأول :

تائب يستقيم على التوبة إلى آخر عمره ، ويتدارك ما فرط من أمره ، ولا يحدث نفسه بالعود إلى ذنوبه ، إلا الزلات التى لا ينفك عنها البشر فى العادات ، فهذه هى الاستقامة فى التوبة ، وصاحبها هو السابق بالخيرات ، وتسمى هذه التوبة : النصوح ، وتسمى هذه النفس : المطمئنة التى يقال لها عند موتها .

((يا أيتها النفس المطمئنة ارجعى الى ربك راضية مرضية . فادخلى فى عبادى وادخلى جنتى)) (٢) ..

---

(١) الاحياء ٤ / ٤٣ ، منهاج القاصدين (١٢٧) .

(٢) آخر سورة الفجر

وهؤلاء يختلفون ، منهم من سكنت شهوته تحت قهر معرفته نفتر نزاعها ، ومنهم من تنازعه نفسه وهو ملىء بمجاهدتها .

* * *

القسم الثانى :

تائب قد سلك طريق الاستقامة فى أمهات الطاعات ، وكبائر الفواحش إلا أنه لا ينفك عن ذنوب تعتريه ، لا عن عمد ، ولكنه يبتلى بها فى مجارى أحواله من غير أن يقدم عزماً على الإقدام عليها ، وكلما أتى شيئاً منها لام نفسه ، وندم وعزم على الاحتراز من أسبابها ، فهذه هى النفس اللوامة ، لأنها تلوم صاحبها على الأحوال الذميمة ، وهؤلاء لهم حسن الوعد من الله سبحانه وتعالى إذ قال :

« الذين يجتنبون كبائر الاثم والفواحش الا اللمم ان ربك واسع المغفرة » (٣) ..

والجمهور على أن « اللمم » ما دون الكبائر ، كالنظرة ، والغمزة ونحو ذلك .

* * *

أما القسم الثالث :

أن يتوب العبد ويستمر على الاستقامة مدة ، ثم تغلبه شهوته فى بعض الذنوب ، فيقدم عليها ، إلا أنه مع ذلك مواظب على الطاعات ، وترك جملة من الذنوب مع القدرة عليها والشهوة لها ، وإنما قهرته شهوته ، وهو يود لو أقدره الله على قمعها ، وكفاه شرها ، لكنه يعد نفسه بالتوبة عن ذلك الذنب فهذه هى النفس المسؤولة ، وصاحبها من الذين قال الله تعالى فيهم :

« وآخرون اعترفوا بذنوبهم خلطوا عملا صالحاً وآخر سيئاً » ..

فأمر هذا من حيث مواظبته على الطاعات ، وكراهيته لما يتعاطاه مرجو . لقوله تعالى :

« عسى الله أن يتوب عليهم » (٤) ..

---

(٣) سورة النجم : ٣٢

(٤) سورة التوبة : ١٠٢

وعاقبته مخطرة من حيث تأخيره وتسويفه فربما يموت قبل التوبة ، فإن الأعمال بالخواتيم . فعلى هذا يكون الخوف من الخاتمة ، وكل نفس يمكن أن يتصل بها الموت . فتكون الخاتمة ، فليراقب الأنفاس . وليحذر وقوع المحذور . حتى لا يكون من النادمين ، مع الخاسرين .

* * *

أما القسم الأخير :

هو أن يتوب ويجرى مدة على الاستقامة ، ثم يعود إلى الذنوب منهمكاً ، من غير أن يحدث نفسه بالتوبة ، ومن غير أن يتأسف على فعله ، فهذا من المصرين ، وهذه النفس هى الأمارة بالسوء ، ويخاف على هذا سوء الخاتمة .

فإن مات هذا على التوحيد فإنه يرجى له الخلاص من النار ، ولو بعد حين ، ولا يستحيل أن يشمله عموم العفو بسبب خفى لا يطلع عليه ، إلا أن التعويل على هذا لا يصلح .

فإن من قال : إن الله تعالى كريم ، وخزائنه واسعة ، ومعصيتى لا تضره ، ثم تراه يركب البحار فى طلب دينار .

فلو قيل له فإذا كان الحق كريماً ، فاجلس فى بيتك لعله يرزقك استجهل قائل هذا وقال :

« إنما الأرزاق بالكسب » . فيقال له « هكذا النجاة بالتقوى » .

وبعد ..

هيا عباد الله انظروا إلى أنفسكم وحاسبوا أنفسكم من أى الأقسام هى ، هل هى سابقة إلى الخيرات ؟ ، أما أنها مقتصدة فى الطاعات ؟ أما أنها ظالمة ؟

وصدق الله حيث يقول فى محكم التنزيل :

« ثم اورثنا الكتاب الذين اصطفينا من عبادنا ، فمنهم ظالم لنفسه ومنهم مقتصد ، ومنهم سابق بالخيرات باذن الله ذلك هو الفضل الكبير » (٥) ..

اختلف العلماء فى تفسير هذه الآية وقد رجح الإمام القرطبى (٦) رحمه الله واحداً هو :

أن « الظالم لنفسه » الذى عمل الصغائر ، و « المقتصد » هو الذى يعطى الدنيا حقها والآخرة حقها .

« والسابق بالخيرات » هم السابقون من الناس كلهم .

فلابد لنا عباد الله على أى حال من الأحوال أن نتوب فى الليل والنهار وإلا كنا من الظالمين كما قال عز وجل :

« ومن لم يتب فأولئك هم الظالمون » (٧) ..

قال مجاهد فى تفسيرها : من لم يتب كل صباح ومساء فهو من الظالمين .

❊ ❊ ❊

● فكان أخلاق السلف (٨) :

عدم الاغترار بالله تعالى بحيث يعتمد أحدهم على عفو الله ، ويترك الأعمال الصالحة ، بل كانوا يبالغون فى الاجتهاد فى العبادة ، ثم يعتمدون على فضل الله تعالى لا على أفعالهم .

● كان أحد العباد يكثر من العبادة حتى بدت أضلاعه ، وكان إذا قيل له إن رحمة الله واسعة يزجر القائل ، ويقول صحيح ذلك ، ولولا سعة رحمته لأهلكنا بذنوبنا فى طاعاتنا فضلاً عن معاصينا .

❊ ❊ ❊

---

(٥) سورة فاطر : ٣٢
(٦) تفسير القرطبى ـ سورة فاطر : ٣٢
(٧) سورة الحجرات : ١١
(٨) من اخلاق السلف : احمد فريد .
(٩) المصدر السابق ص ٢٧

● **كان حذيفة بن قتادة رحمه الله :**

يقول : لو قال لى شخص والله إن أعمالك أعمال من لا يؤمن بيــوم الحساب لقلت اه صدقت لا تكفر عن يمينك .

***

ومن أخلاقهم رضى الله عنهم :

تقليل أعمالهم فى عيونهم من حيث كسبهم لها ، ولو كانوا على عبــادة الثقلين ، فكانوا لا يرون أنهم قاموا بذرة واحدة من حقوق الله تعالى ، وقد قام النبى صلى الله عليه وسلم حتى تفطرت قدماه فقيل له أتفعل ذلك وقد غفر الله لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر . فقال :

« أفلا أكون عبداً شكوراً » (١٠) ..

***

وكان عبد الرحمن بن هرمز الأعرج ــ رحمه الله ــ يقول :

فتشوا أنفسكم فيما هى عليه من القبائح فإن كل أحد يحشر غداً مع جنسه ، فمن وقع فى سائر المعاصى فله مع كل قوم حشراً . ثم يعاتب نفســه ويقول :

إن المنادى ينادى يوم القيامة : يا أهل خطيئة كذا قوموا فتقوم يا أعرج معهم .

ثم ينادى يا أهل خطيئة كذا قوموا فتقوم يا أعرج معهم . يا أهل خطيئة كذا قوموا فتقوم يا أعرج معهم .

فأراك يا أعرج تقوم مع كل طائفة .

***

(١٠) رواه البخارى ومسلم .

موعظـــــــــة

قال ابن الجوزى (١١) رحمه الله :

سبحان من وفق للتوبة أقواماً ، ثبت لهم على صراطها أقـداماً ، كفوا الأكف عن المحارم احتراماً ، وأتعبوا فى استدراك الفارط عظاماً ، فكفـر عنهم ذنوبا وآثاماً ، ونشر لهم بالثناء على ما عملوا أعلاماً ، فهم على رياض المدائح بترك القبائح ، يتقلبون .

❊ ❊ ❊

« التائبــون العــابدون »

ندموا على الذنوب فندبوا ، سافروا إلى المطلوب فاغتربوا ، نظروا إلى الدنيا بعين الاعتبار ، فعلموا أنها لا تصلح للقرار ، وتأملوا أساسها فإذا هو على شفا جرف هار ، فنغصوا بالصيام لذة الهوى بالنهار ، وبالأسحار هم يستغفرون .

❊ ❊ ❊

« التائبــون العــابدون »

باعوا الفانى بالباقى وكتبوا وثيقة ، وحملوا نجائب الصبر فوق ما هى له مطيقة ، وطلبوا الآخرة والله على الحقيقة ، هكذا يكون .

❊ ❊ ❊

« التائبــون العــابدون »

يارب سر بنا فى سرب النجابة ، ووفقنا للتوبة والإنابة ، وافتح لأدعيتنا أبواب الإجابة .

يا من إذا سأله المضطر أجابه ، يا من يقول للشىء كن فيكون .

« التائبــون العــابدون »

❊ ❊ ❊

---

(١١) التبصرة : ١/٣٠

الباب السابع

من احكام التوبة

١ ــ هل يجوز للمسلم او المسلمة تاخير التوبة ؟

قال الإمام ابن القيم [1] رحمه الله مبيناً هذا الأمر العظيم :

إن المبادرة إلى التوبة من الذنب فرض على الفور . ولا يجوز تأخيرها فمتى أخرها عصى بالتأخير .

فإذا تاب من الذنب بقى عليه توبة أخرى . وهى توبته من تأخير التوبة .

٢ ــ هل يجوز أن يتوب العبد توبة عامة للذنوب كلها ؟

قال الإمام ابن القيم :

« لا ينجى من هذا إلا توبة عامة ، مما يعلم من ذنوبه ومما لا يعلم . فإن ما لا يعلمه العبد من ذنوبه أكثر مما يعلمه . ولا ينفعه فى عدم المؤاخذة بها جهله إذا كان متمكناً من العلم . فإنه عاصٍ بترك العلم والعمل فالمعصية فى حقه أشد .

٣ ــ هل تصح التوبة من ذنب دون آخر ؟

فيه قولان لأهل العلم . وإليك ما رجحه الإمام ابن القيم :

والذى عندى فى المسألة ، أن التوبة لا تصـح من ذنب ، مع الإصرار

---

(١) مدارج السالكين ١ / ٢٦٨

على آخر من نوعه . وأما التوبة من ذنب ، مع مباشرة آخر لا تعلق له به ، ولا هو من نوعه . فتصح .

كما إذا تاب من الربا ، ولم يتب من شرب الخمر مثلاً . فإن توبته من الربا صحيحة . وأما إذا تاب من تناول الحشيشة وأصر على الخمر أو العكس ، فهذا لا تصح توبته . وهو كمن يتوب عن الزنا بامرأة ، وهو مُصِر على الزنا بغيرها غير تائب منها . فهذا فى الحقيقة لم يتب من الذنب .

٤ ـ هل يشترط فى صحة التوبة أن لا يعود الى الذنب أبداً ؟

قال الإمام ابن القيم :

فشرط بعض الناس : عدم معاودة الذنب . وقال متى عاد إليه تبينا أن التوبة كانت باطلة غير صحيحة .

والأكثرون على أن ذلك ليس بشرط . وإنما صحة التوبة تتوقف على الإقلاع عن الذنب ، والندم عليه ، والعزم الجازم على ترك معاودته . فإذا عاوده ، مع عزمه حال التوبة على أن لا يعاوده صار كمن ابتدأ المعصية ، ولم تبطل توبته المتقدمة .

٥ ـ هل يجوز للعبد أن يقول انما يمنعنى من التوبة أنى أعلم من نفسى أنى أعود الى الذنب ولا أثبت على التوبة ؟

قال الشيخ الرستاقى (٢) رحمه الله :

إن هذا من غرور الشيطان ، لأن العبد لا يدرى متى يفجؤه الموت ، فلعله يموت تائباً قبل أن يعود إلى الذنب .

وأما الرجعة إلى الذنب فعلى العبد العزم والصدق . وإتمام الإقامة على التوبة ، فإن ثبت على التوبة وسلم من الرجعة إلى الذنب ، فذلك بتوفيق الله تعالى وبفضله عليه .

---

(٢) منهج الطالبين ٢/٢٣٢

فإن رجع إلى الذنب فقد تاب من ذنوبه السالفة وتخلص منها، وتطهر من أقذارها . وليس عليه إلا الذنب الذى أحدثه ، وهـذا ربح عظيم وفائدة كبيرة فلا ينبغى للعبد أن يمنعه من التوبة خوف الرجعة إلى الذنب .

فإن التائب لا يخلو أبداً من الفائدة .

ومن قبل الله توبته فقد أحبه لأن الله يقول :

« ان الله يحب التوابين ويحب المتطهرين » ..

ومن أحبه الله فهو فى غاية القرب منه ، فعلى العبد أن يجتهد ويستيقظ من رقدة الغفلة عسى أن يسلم من الإصرار ، ويتخلص من الأوزار ، ولا يأمن من قساوة القلب . فعلى العبد أن يبادر على التوبة عند كل ذنب صغير أو كبير ، فإن الأجل محتوم ، والدنيا غرور ، ولنا أسوة حسنة بأبينا آدم عليه الصلاة والسلام خلقه الله تعالى بيده ، وأسكنه جنته فى جواره ، ولم يذنب إلا ذنباً واحداً ، فكيف حالنا فى ذنوب لا تحصى ، نسأل الله تعالى أن يتوفانا عن توبة نصوح وعمل صالح مقبول إنه على كل شىء قدير .

فمن تاب ورجع إلى الذنب فإنه يرجع إلى التوبة أيضاً ، فلعله أن يموت قبل أن يرجع إلى الذنب ، ويكون هذا حاله متى أحدث ذنباً ، فليحدث له توبة ، ولا يكون فى التوبة أعجز منه فى الذنب ، ولا ييأس من رحمة الله .. انتهى .

٦ـ كيف يكون حال العبد بعد التوبة ؟

قال الشيخ الرستاقى رحمه الله :

ينبغى للعبد أن يكون بعد التوبة أشد انكساراً ، وخشية ، فإنه إذا أعجب بتوبته أبطل العجب توبته ، وبقيت عليه ذنوبه .

وقال أبو الحوارى رحمه الله :

إن الرجـل ليذنب الذنب فلا يزال نادماً حتى يدخل الجنة ، فيقـول الشيطان ياليتنى لم أوقعه فيه .

٧ ـ هل يشترط فى التوبة من المظلمة فى حق الآدمى بغيبة أو بقـذف اعلامه ؟

مدهب أبى حنيفة ومالك والشافعى اشترطوا الإعلام . ذكره أصحابهم فى كتبهم . واحتجوا بحديث النبى صلى الله عليه وسلم :

« من كان لأخيه عنده مظلمة من مال أو عرض فليتحلله اليوم قبل ألا يكون دينار ولا درهم إلا الحسنات والسيئات » .

فهذا الذنب يتضمن حقان . حقاً لله ، وحقاً لآدمى ، فالتوبة منه بتحلل الآدمى لأجل حقه ، والندم فيما بينه وبين الله لأجل حقه . قالوا : ولهذا كانت توبة القاتل لا تتم إلا بتمكين ولى الدم من نفسه ، إن شاء اقتص ، وإن شاء عفا . وكذلك توبة قاطع الطريق ويرى شيخ الإسلام ابن تيمية ـــ رحمه الله ـــ أنه لا يشترط الإعلام بل يكفى توبته بينـــه وبين الله . وأن يذكر المغتـــاب والمقذوف فى مواضع غيبته وقذفه بضد ما ذكره به من الغيبة . فيبدل غيبته بمدحه والثناء عليه وذكر محاسنه ، وقذفه بذكر عفته ويستغفر له بقـــدر ما اغتابه .

واحتج لذلك بأن إعلامه مفسدة محضة لا تتضمن مصلحة . وما كان هكذا فإن الشارع لا يبيحه فضلاً عن أن يوجبه أو يأمر به .

٨ ـ هل يعود التائب الى مرتبته التى كانت قبل المعصية بتوبته ؟

قالت طائفة : لا يرجـــع إلى درجتـــه وحاله لأنه لم يكن فى وقـــوف ، وإنما كان فى صعود فبالذنب صار فى هبوط ، فإذا تاب نقص عليه ذلك القدر الدى كان مستعداً به للترقى .

وقالت أخرى . يرجع إلى درجتـــه لأن التـــوبة تجب الذنب بالكليـــة وتصيره كأن لم يكن .

قال شيخ الإسلام ابن تيمية ـ رحمه الله والصحيح أن من التائبين من

لا يعود إلى درجته ، ومنهم من يعود إلى أعلى منها فيصير خيراً مما كان قبل الذنب ، وكان ــ داوود عليه السلام ــ بعد التوبة خيراً منه قبل التوبة .
وهنا مثل مضروب :

رجل مسافر سائر على الطريق بطمأنينة وأمن فهو يعدو مرة ، ويمشى أخرى ، ويستريح تارة ، وينام أخرى . فبينما هو كذلك إذ عرض له فى سيره ظل ظليل ، وماء بارد ، ومقيل وروضة مزهرة فدعته نفسه إلى النزول على تلك الأماكن فنزل عليها فوثب عليه منها عدو فأخذه وقيده ومنعه عن السير فعاين الهلاك ، وظن أنه متقطع به ، وأنه رزق الوحوش والسباع ، وأنه قد حيل بينه وبين مقصده الذى يؤمه ، فبينما هو على ذلك تتقاذفه الظنون ؛ إذ وقف على رأسه والده الشفيق القادر فحل كتافه وقيوده ، وقال له : اركب الطريق واحذر هذا العدو ، فإنه على منازل الطريق لك بالمرصاد ، واعلم أنك مادمت حاذراً منه متيقظاً له ، لا يقدر عليك ، فإذا غفلت وثب عليك ، وأنا متقدمك إلى المنزل وفرط لك فاتبعنى على الأثر ، فإذا كان هذا السائر كَيِّساً فطناً لبيباً حاضر الذهن والعقل استقبل سيره استقبالاً آخر أقوى من الأول وأتمَّ ، واشتد حذره ، وتأهب لهذا العدو ، وأعد له عدته .

فكان سيره الثانى أقوى من الأول وخيراً منه ، ووصوله إلى المنزل أسرع :

وإن غفل عن عدوه ، وعاد إلى مثل حاله الأول من غير زيادة ونقصان ولا قوة حذر ، ولا استعداد ، عاد كما كان وهو معرض لما عرض له .

أولاً : وإن أورثه ذلك توانياً فى سيره ، وفتوراً وتذكر الطيب وقيله ، وحسن ذلك الروض ، وعذوبة مائه : لم يعد إلى مثل سيره ونقص عما كان (٣) .

---

(٣) مدارج السالكين ٣١٦ ، ٣١٧ ، ٣١٨

٩ ــ ما هى انواع التوبة ؟

قال شيخ الإسلام ابن تيمية [٤] رحمه الله :

« التوبة نوعان : واجبة ومستحبة »

فالواجبة هى التوبة من ترك مأمور أو فعل محظور . وهذه واجبة على جميع المكلفين ، كما أمرهم الله بذلك فى كتابه ، وعلى ألسنة رسله .

والمستحبة هى التوبة من ترك المستحبات وفعل المكروهات .

فمن اقتصر على التوبة الأولى كان من الأبرار المقتصدين ، ومن تاب التوبتين كان من السابقين المقربين . ومن لم يأت بالأولى كان من الظالمين . أ . هـ

عباد الله هذا قليل من أحكام التوبة ، ولكن فيه الخير الكثير فهيا نتوب .

***

(٤) رسالة فى التوبة (١١)

موعظـــــة

● **قال الامام ابن الجوزى (٥) رحمه الله :**

لقد دعاكم إلى البدار مولاكم ، وفتح باب الإجابة ثم استدعاكم ، ودلكم على منافعكم وهداكم ، فصبوا ذنوب الحزن على ذنبكم .

« وسارعوا الى مغفرة من ربكم » ..

* * *

بابه مفتوح للطالبين ، وجنابه مبذول للراغبين ، وفضله ينادى :

« يا غافلين ، وإحسانه ينادى : يا جاهلين ، فاخرجوا من دائرة المذنبين ، وبادروا مبادرة التائبين ، وتعرضوا لنسمات الرحمة تخلصوا من كربكم .

« وسارعوا الى مغفرة من ربكم » ..

* * *

كم شغلتم بالمعاصى فذهب الفرض ، وبارزتم بالخطايا ونسيتم العرض ، ففروا إلى الله من سجن الهوى فقد ضاق طوله والعرض .

« وسارعوا الى مغفرة من ربكم » ..

* * *

(٥) التبصرة : ٤٢/١

الباب الثامن

بيان الأمور التى تعين على التوبة

أولا :

أن يعرف العبد قدر عظمة الله عز وجل ، وقدرته وجبروته ، وأنه قادر على أن ينزل به عقاباً أليماً .

فمن ذلك يحصل العبد من السرعة فى التوبة ما هو مشاهد بالتجربة قال أحد السلف :

لا تنظر إلى صغر المعصية ، ولكن انظر إلى من عصيت .

وقال عز وجل :

« ما لكم لا ترجون لله وقارا ، وقد خلقكم أطواراً » (١) ..

قال بعض السلف : ما لكم لا تقدرون عظمة الله ، وتعرفون قدره .

ثانيـا :

أن يتذكر العبد الموت وما فيه من ألم وشدة ، والقبر وما فيه من وحشة وظلمة ، وغربة وفرقة ، فقد قال تعالى :

« كل نفس ذائقة الموت ، وانما توفون أجوركم يوم القيامة » (٢) ..

---

(١) سورة نوح : ١٣ ، ١٤

(٢) سورة آل عمران : ١٨٥

وقال جل ثناؤه :

« وما تدرى نفس ماذا تكسب غداً ، وما تدرى نفس باى ارض تموت » (٣)

● **وقال مجاهد رحمه الله :**

أول ما يوضع ابن آدم فى قبره يناديه القبر :

يا ابن آدم ويحك ما غرك بى ، ألم تعلم أنى بيت الدود ، ألم تعلم أنى بيت الفرقة ، ألم تعلم أنى بيت الظلمة . هذا ما أعددت لك ، فماذا أعددت لى ؟ .

* * *

● **وقال ابن عمر رضى الله عنه :**

إذا مسيت فلا تنتظر الصباح ، وإذا أصبحت فلا تنتظر المساء وخذ من صحتك لمرضك ، ومن حياتك لموتك .

ثالثاً :

أن يعرف العبد أن الفلاح فى الدنيا والآخرة مرتهن بالعمل للآخرة ، لأن الدنيا فانية ، وزائلة ، وما هى إلا ساعة ويعود إلى ربه . قال عز وجل :

« يا أيها الانسان انك كادح الى ربك كدحاً فملاقيه » (٤) ..

وقال عز وجل :

« واضرب لهم مثل الحياة الدنيا كماء أنزلناه من السماء فاختلط به نبات الأرض فاصبح هشيما تذروه الرياح وكان الله على كل شىء مقتدراً » (٥) ..

وقال جل ثناؤه :

« يا أيها الناس ان وعد الله حق فلا تغرنكم الحياة الدنيا ولا يغرنكم بالله الغرور » (٦) ..

---

(٣) سورة لقمان : ٣٤

(٤) سورة الانشقاق : ٦

(٥) سورة الكهف : ٤٥ ــ ٤٦

(٦) سورة فاطر : ٥

● **وقال صلى الله عليه وسلم :**

« لو كانت الدنيا تعدل عند الله جناح بعوضة ما سقى كافرا منها شربة ماء » (٧) .

« ما الدنيا فى الآخرة إلا كمثل ما يجعل أحدكم إصبعه فى اليم فلينظر بما يرجع » (٨) .

* * *

● **قال ابن عباس :**

يؤتى بالدنيا يوم القيامة فى صورة عجوز شمطاء زرقاء ، أنيابها بادية ، مشوه خلقها ، فتشرف على الخلق فيقال : هل تعرفون هذه ؟

فيقولون : نعوذ بالله من معرفة هذه .

فيقال : هذه الدنيا التى تشاجرتم عليها .

وبها تقاطعتم الأرحام ، وبها تحاسدتم وتباغضتم ، واغتررتم ، ثم تقذف فى جهنم .

فتقول : يارب أين أتباعى وأشياعى ؟

فيقول : ألحقوا بها أتباعها وأشياعها .

رابعاً :

أن يعلم العبد أن تعجيل العقوبة فى الدنيا متوقع ، وأن كل ما أصابه من مصائب ، فهو من قبل ذنوبه ، وصدق الله العظيم إذ يقول :

« وما ظلمهم الله ولكن كانوا أنفسهم يظلمون » (٩) ..

* * *

---

(٧) رواه الترمذى وقال : حسن صحيح .
(٨) رواه البخارى ومسلم .
(٩) سورة النحل : ٣٣.

● **قال الفضيل رحمه الله :**

إنى لأعصى الله ، فأعرف ذلك فى خلق حمارى وخادمى .

* * *

● **وقال ابن سيرين رحمه الله :**

عيرت رجلا بالإفلاس منذ عشرين سنة فقلت له يا مفلس ، ولقد ابتلانى الله الآن بالإفلاس .

* * *

● **وقال الفضيل :**

« ما من عبد تفوته صلاة فى الجماعة إلا بذنب أذنبه » ..

* * *

موعظـــــــة

● قال ابن الجوزى (١٠) رحمه الله :

أيتها النفس اقلعى عن الجناح وتوبى ، وراجعى إلى الصلاح وأوبى ، أيتها النفس قد شان شأنى عيوبى ، أيتها الجاهلة تكفينى عيوبى واأســفاه من حياة على غرور ، وموت على غفلة ، ومنقلب إلى حسرة ، ووقوف يــوم الحساب بلا حجة .

يا هذا مثل نفسك فى زاوية من زوايا جهنم وأنت تبكى أبداً وأبوابها مغلقة ، وسقوفها مطبقة ، وهى سوداء مظلمة لا رفيق تأنس به ، ولا صديق تشكو إليه ، ولا نوم يريح .

* * *

● قال كعب الأحبار :

إن أهل النار ليأكلون أيديهم إلى المناكب من الندامة على تفريطهـم ، وما يشعرون بذلك .

* * *

قال الشاعر :

يا ويــح نفس رضيت بالســــقم
وفرطت فى عمـــــــــر منصرم

تـســـــتر باللهــو وتنسى حتفهــا
وتؤثــر البعـــــد على التقـــدم

---

(١٠) المدهش (١٧٧)

تفـــرح بالفـــانى فمـــا تطلب ما
يبقى لهـــا فمـــن يكـــون حكمى

كم مـــن ذنـــوب لك قـــد ســـترها
وعـــاد بالفضـــل والكـــرم

كم واعظ فى كل زاجـــــر
وكم نـــذير زائـــر مســـلم

أين الذين شـــيدوا واحترســـوا
وأين مـــن كان كثير النعـــم

وكم ينـــاديك لســـان وعبرة
وأنت عـــن قـــول الهـــدى فى صمم

مضى الجميـــع هـــل نـــرى مـــن أثر
لهم وصـــاروا فى بيـــوت الظـــلم

تبـــدلوا بالتراب تـــربا كلهـــم
فى قعـــر لحـــد ضـــيق منهـــدم

تفصـــلت عظامهـــم وحصلت
أعمالهـــم وأصـــبحوا كالعـــدم

وباشروا التـــراب بعـــد تـــرفه
وشرف وحجب وخـــــدم

لو قيـــل قـــولوا ما مناكم طلبـــوا
حيـــاة يوم ليتـــوبوا فاعلم

ويحـــك يـــا نفس ألا تيقظ
ينفـــع قبـــل أن تـــزل قـــدمى

مضى الزمـــان فى توان وهـــوى
فاســـتدركى ما قـــد بقى واغتنمى

مـــن لى إذا نزلت لحـــــداً مظلمــاً
هـــــذا وكم مـــن نازل لم يســـــلم

مـــن لى إذا قـــرأت ما أمليتـــــــه
اقبح مســـــطور جـــرى بالقــــــلم

مـــــن لى إذا أزعـــــج قلبى حسرة
وهـــل تـــرى يشـــــفى بفوزى ألمى

❋ ❋ ❋

● **قال يزيد الرقاشى :**

مثلت نفسى فى النار آكل من زقومها ، وأشرب من صديدها ، وآضرب بمقارعها ، فقلت لنفسى ماذا تشتهين ؟

قالت : أعود إلى الدنيا فأعمل صالحاً ، فأنجو به من العــذاب الأليــم .

ومثلت نفسى فى الجنة أسعى فى رياضــها ، وأعانق أبكارها وألبس من حريرها ، فقلت لنفسى ماذا تشتهين ؟ .

قالت : أعود إلى الدنيا فأعمل صالحاً فأزداد به من النعيم .

فقلت لنفسى ها أنت فى الأمنية فاعملى لما تريدين .

عباد الله نحن فى الأمنية فهيا نتوب ، ونندم ونعود .

هذا آخر ما وصلنا إليه فى التوبة النصوح ..

وما توفيقى إلا بالله ، عليه توكلت وإليه أنيب .

والحمد لله الذى بنعمته تتم
الصالحات

❋ ❋ ❋

المراجــــــع

القرآن الكريم

١ ــ احياء علوم الدين ــ للغزالى ــ طبعة المكتب الثقافى ــ مصر

٢ ــ تفسير القرطبى ــ طبعة دار الشعب ــ مصر

٣ ــ التبصرة ــ لابن الجوزى ــ مؤسسة جمال ــ بيروت

٤ ــ الذريعة ــ الأصفهانى ــ دار الوفاء ــ المنصورة

٥ ــ رياض الصالحين ــ النووى ــ مكتبة القدسى ــ مصر

٦ ــ لطائف المعارف ــ ابن رجب ــ

٧ ــ من اخلاق السلف ــ احمد فريد ــ البصيرة ــ الاسكندرية

٨ ــ مفتاح دار السعادة ــ ابن القيم ــ مكتبة المتنبى ــ مصر

٩ ــ المدهش ــ لابن الجوزى ــ دار مروان

١٠ــ مدارج السالكين ــ ابن القيم ــ دار الحديث ــ مصر

١١ــ مختصر منهاج القاصدين ــ ابن قدامة ــ دار بدر ــ مصر

١٢ــ المعجم المفهرس لألفاظ القرآن ــ عبد الباقى ــ دار الحديث ــ مصر

١٣ــ منهج الطالبين ــ الرستاقى ــ الحلبى ــ مصر

فهرس الكتاب

رقم الايداع : ٤٧٨٧م / ١٩٨٦م

